

فتنة الزنج

ورثاء البصرة في شعر ابن الرومي

للأستاذ محمود الشراوي

- ٢ -

—*—*—

مقدمة

جئنا في مقالنا الأول عن فتنة الزنج^(١) على مبدأ ظهور صاحب الزنج وبدء فتنته واستيلائه على المبيد والزنج وخروجه بهم على الولاة حتى دخل بهم البصرة وخرّبها في شهر شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين . وكان دخوله إليها وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقية منه ، فأباحها صاحب الزنج لاتباعه ليلة ويومين يفعلون بها وبأهلها ما شادوا .

رثاء ابن الرومي

بدأ ابن الرومي قصيدته في وصف هذه الحال بهذه البداية المجازة :

ذاد عن مقلى لذبذ الممام شغلها عنه بالدموع المعجم

(١) عدد ٣٩٧ من الرسالة

يرتفع به الشك وينجلي به الحق ، وتسهل معه دراسة علم الكلام . وهناك أيضاً مسألة أخرى أعدها هامة من الطراز الأول ، أعتى بها تاريخ الأزهر ببيان الرسالة التي أنشئ أولاً لأجلها ، ومدى تطور هذه الرسالة على مدى القرون ، وما يجب أن تكون عليه في المستقبل ، وتاريخ رجالات الأعلام حتى تصل للعصر الحاضر . إن من أوجب العجب أن يؤرخ مفكرى الإسلام كثير من المستشرقين ومن بينهم العالم الفرنسى كارادى فو Carra de Vaux في خمسة مجلدات تشمل ما يزيد على الألفين من الصفحات وأن يجد في المعجمات الفرنسية ترجمات لن يجب أن يكون لهم ذكر في التاريخ ، بينما كبار من خرجهم الأزهر ، ومن لهم علينا أكبر النة — بما تدرس من مؤلفاتهم وبما أقادوا العلم في النواحي المختلفة — أصبحوا منحيين منا ولا نجد السبيل لتراجم لهم إن أردناها ! وهذا وذاك من الأعمال جدير بأن يستأثر بكثير من

أى نوم من بدم ما حل بالبصرة ما حل من هنات عظام ؟
أى نوم من بدم ما انتهك الزنج جهاراً عارم الإسلام ؟
إن هذا من الأمور لأمر كاد ألا يقوم في الأوهام
ومن هذه الهداية يشمر للقارى بما يريد ابن الرومي أن يوحى

إليه من الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به عارم الإسلام » حتى أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام
ثم ينتقل بدم هذا الإجماع وإثارة للغضب والسخط في قلب

سامعه وقارنه إلى وصف ما يريد فيقول مجملاً في بيت واحد :

أقدم الخائن المين عليها - وطى الله - أيما إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارح إلى ماني نفسه من الحزن

والهنة على ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لحف نفسى عليك أيها البصرة لهما كمثل لب الضرام

لحف نفسى عليك يا مذن الخيرات لهما كمثل لب الضرام

لحف نفسى عليك يا قبة الإلام لهما كمثل لب الضرام

لحف نفسى عليك يا فرضة البانان لهما كمثل لب الضرام

لحف نفسى لجمك المتفاني لهما كمثل لب الضرام

بهذه اللغات التواليات قد هيا ابن الرومي قارنه لأن يقرأ

وصفه القادم لما حل بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالتهيظ والتهضب

التي أوحاه إلتنا في مطلع قصيدته . ثم يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رمام عبيدكم باصطلام

دخلوها كأنهم قطع اللؤلؤ إذا راح مدلم للظلام

جهود من يرى في نفسه الكفاية منا حتى يكون لنا شيء نهامى به

في السيد الألقى للأزهر ، وأرجو أن يكون منا غير بسيد

٣ - للغاية التي أستشرف إليها هي إذا السامعة - في غير

تثريب على الغير من كبار الشيوخ الذين أدوا ما طلب منهم

كما فهموه - في تهيئة بيئة علمية ينظر فيها الطالب بعقله لا بعقل

أحد ممن سبقوه ، ويرى فيها الرأى لأن الدليل يصنعه لا لأن

الغزالي أو مثله ذهب إليه . بذلك يصح لنا وجه الحكم في المضاء

الذي زعموه بين الدين والفلسفة ، ويسهل الإقناع والاتقاع ،

ونصحح كثيراً من قضايا الماضى وأحكامه ، ونبنى على ماض غير

مدخول ، وأساس متين لا وهن فيه . وإلى اللقاء للقريب

- إن تفضلت الرسالة للراء - إن شاء الله تعالى

محمد يوسف مرسى

المدرس بكلية أصول الدين

صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح وهي قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعماد أسواقها وتلك الغلث التي تدير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الأحكام من بنيانها ، وكيف استفعال هذا كله - بفتنة الزنج - إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيد وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسقى عليها الرياح :

عمرًا جا صاحبي بالبصرة الزهراء تعريج مدنف ذي مقام
فأسألاها - ولا جواب لديها لسؤال - ومن لها بكلام... ؟
أين ضواء ذلك الخلق فيها ؟ أين ذاك البنيان ذو الأحكام ؟
بدت تلكم القصور تلالا من رماد ومن تراب ركام
سلط للبق^(١) والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حولها ، فهي تفر لا ترى للعين بين تلك الأكام
غير أيد وأرجل بائنات نبذت ، بينهن أفلاق هام
ووجوه قد رملتها دماء بأني تلكم الوجوه الدواي
وطنت بالمهوان والذل قسرا بعد طول للتبجيل والإعظام
فتراها تسقى الرياح عليها جارات بهبوة وقغام
خاشعات كأنها ياكيات بإديات للنفور ، لا لانبسام... !

ولا شك في أن القاري يشر بتلك القدرة الفائقة التي صور بها ابن الرومي ذلك المشهد ، مشهد خرائب البصرة وقصورها التي أُنحِت تلالاً ، ومشهد تلك الأيدي والأرجل مبثرة فيها قد نبذت بينهن أفلاق هام ، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدا منها للفر وبرزت التواجد ولكن لا لتبسم... !
ثم ينتقل ابن الرومي بمد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبه أيضاً :

بل أما بباحة للمجد الجا مع إن كتبنا قوى إلزام
فأسألاه - ولا جواب لديه - أين عباده للطوال للقيام... ؟
أين عمّاره الأثني عمّروه دهرهم في تلاوة وصيام
أين فتياه الحمان وجوها ؟ أين أشتياخه أولو الأحلام

(١) في القاموس [بتى التهر بتقا وبتقا وبتناتنا كسر شطه يبتقى الماء] ولعل صاحب الزنج كان قد كسر و شط العرب ، التي تم عليه البصرة ، فتصدق صورة ابن الرومي عن حصارها بالاء والتار .

أى هول رأوا به أى هول حتى منه يشيب رأس اللغلام
إذ رموم بنارم من عين وشمال ، وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب كم أغصوا من طاعم بطمام
كم ضنين بنفسه رام منجى فتلقوا جبينه بالحصام
كم أخر قد رأى أخاه صريماً كرب الخدين صرعى كرام
كم أجب قد رأى عزيز بنيه وهو يسلى بصارم مصمام
كم مقدى في أهله أسلموه حين لم يحمه ، هناك ، حاي
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه بشبا للسيف قبل حين اللغلام
كم فتاة - بخاتم الله - بكر فضحوها جهراً بغير اكتام
كم فتاة مصونة قد صبوها بإرزاً وجهها بغير لثام
من رأهن في الساق سبايا داميات الوجوه للأقدام
من رأهن في المقام - وسط الزنج - يقسمن بينهم بالسهام
من رأهن يتخذن إماء بعد ملك الأمام والخدام
هذه القطعة من قصيدة ابن الرومي قد رأى فيها القاري كيف دخل الزنج على البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل . وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن بين وشمال . ثم هو يقدم إلينا هذه الصور الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل في قوة تصويرها . فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غص بشرايه وطعامه ، وهذا هارب ضنين بنفسه قد جهته سيوفهم وتلقت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه صريماً قد عقر للتراب خده بين كرام غيره ، مسفرة خدودهم . ثم يقدم إلينا صورة من تلكم الفتيات الأبيكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج وفضوهن حجرة بغير اكتام . ثم ساقوهن إلى السبي يفرقونهن بينهم ويقسموهن ممالك وكن من قبل يملكن الإماء والخدام

ثم يعود بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والمدوان إلى شعوره النفسي يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أضرم القلب أيماء إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أوجعتني صراة الأرقام
ثم يرجع إلى ذكر صور مجلّة بعض الأجمال عن بيع السبايا وتخريب البيوت البارة كانت ماوى الضماف والأيتام . ودخول القصور العاصرة كانت من قبل صبة المرام . ثم يقدم لنا بمد ذلك

تحريض وانارة

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومي قد أبرز تلك الصورة البارعة للقوية الصادقة عن وصف ما حل بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو يتقل بمد ذلك الوصف إلى تهيج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزوجه حتى يثاروا منه لأنفسهم وأهلهم . وهنا تبرز الغاية التي قصد إليها ابن الرومي ، ونعتقد أنه تمهدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة في التحريض والإنارة حين ذكر ابن الرومي « محارم الإسلام » ، وحين قال بمد ذلك بيتاً قصدنا أن نقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمى - بشير حق - إماماً لا هدى الله سميته من إمام
وقد ذكر هذا البيت بمد ذلك الذي يقول فيه إن الخائن
اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله

كل هذه الإيماءات بالمهاج والنار يجعلها ابن الرومي دعوة صريحة في هذه القطعة التي يتقل إليها بمد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانها وشيوخه أولى الأحلام

أى خطب ، وأى رزه جليل نالنا في أولئك الأحمام
كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد وفتية في دينه علام
واندأى على التخلف منهم ا وقليل عنهم فناء ندأى
وأحياناً منهم - إذا ما التقتنا وم - عند حاكم الحكام
أى عنر لنا ؟ وأى جواب ؟ حين تدعى على رؤوس الأمام :

يا عبادى ا أما غضبت لوجهي ذى الجلال العظيم والإكرام ؟
أخذتم إخوانكم وقعدتم عنهم - ويحكم - قوم اللثام ؟
كيف لم تعطفوا على أخوات في حبال السبيد من آل حام ؟
لم تقاروا لشيرتى ، فتركتهم حرمانى لمن أحل حرامى
إن من لم ينر على حرمانى غير كفاء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالرد بدلاً وهو - من دون حرمة - لا يحمى

ثم يقدم لنا ابن الرومي بمد هذا التحريض القوي هذه الصورة البارعة من خصومة تحيل أنها واقعة بينه وبين النبي عليه السلام عن هؤلاء الشيوخ والفتيان وكيف لم يثار لهم :
وأحياناً من النبي إذا ما لامن فيهم أشد اللام ا
واقطاعى إذا هم خصمون وتولى للنبي منهم خصامى ا

مثلوا قوله لكم - أيها لنا س - إذا لامكم مع اللوام
« أمتى ابن كستم إذ دعيتكم حرمة من كرائم الأقوم ... ؟
مرخت : يا محمداه ... فهلاً قام فيها رعاة حتى مقاي ... ا
لم أجبها إذ كنت ميتاً فلولا كان حتى أجابها عن عظامى ا »
وأريد هنا أن أشير إلى براعة ابن الرومي إذ انتقل من خطاب نفسه في الأبيات الأولى إلى خطاب من يحرضهم حين بدأ بصف خصومة النبي عن قتلى الزنج فقال : « مثلوا قوله لكم أيها الناس »

ثم يندرج ابن الرومي بمد هذه الإنارة وإهاجة النفوس إلى الدعوة للصريحة إلى النار من صاحب الزنج في هذه القطعة التي هي ختام قصيدته ، والتي نكتفي منها بهذه الأبيات :

إنفروا - أيها الكرام - خفافاً وتقالاً إلى السبيد للطنام
أبرموا أسرم وأنتم نيام ، سوءة سوءة لنوم النيام
صدقوا الظن إخوة أم لوكم ورجوكم لنسوة الأيام
أدركوا نارهم فذاك لهم مثل رد الأرواح في الأجسام
لم تقروا للعيون منهم بنصر فأثروا عيونهم بانتقام
أتقدوا سببهم - وقل لهم ذا ك حفاظاً ورعية للذمام
عارهم لازم لكم ، أيها لنا س ، لأن الأديان كالأرحام
لانظيوا المقام عن جنة الخلا د فأنتم في غير دار مقام
فاشترروا الباقيات بالمرض الأد نى ، وييموا انقطاعه بالعوام

هكذا ينتهى ابن الرومي من قصيدته في رثاء البصرة وفيها أسبابها وأهلها من صاحب الزنج وقتلة الزنج وتحريض الناس على النار منه ومنهم

وأعتقد أن القارى يجد أنى لم أكن مثالياً حين قلت في ختام مقالى الأول عن هذه القصيدة من شعر ابن الرومي إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربى ، وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع الشعر العربى كله وأزيد على ذلك لليوم أن ابن الرومي كان في تحريضه للناس وتوبيخه لهم ، ما كراً خبيثاً وقويماً عارماً شديد التأثير ، يكاد شعره في ذلك يدفعنا نحن الآن - أحد عشر قرناً - إلى الثورة والمهاج